السيف الوحيد الباقي

وانضمت نادية عز الدين إلى موكب الأرامل، مرة ثانية.

انضمت وفى يديها ولدان أتى كلّ واحد منهما من صلب رجل أحبها بقدر ما كان محبًّا لصديقه الزوج الآخر..

وقيل لها خبر كانت تثق من صحته حول قَتلةَ زوجها الشيخ فريد.. وعرفت أن ولدىْ النحال ومعهما فتيان فتيان هم الجناة المتسترون خلف رجل اسمه عبد الرحمن أبو الوفا عجيزة وشهرته السني الذى كان يقود السيرة وبجواره فى المقعد الأمامى رجل آخر اسمه خالد السيد محمود الشهير «بخالد بق»

وفى البلد زارتها سيدة أنيقة وبصحبتها شابان تطفح هيئتهما بالصحة والهناء يرافقهم الريس عفيفى الذى قدم لها ضيوفها قائلًا :

ـ «هذه ابنتى الأستاذة خميسة المحامية.. وياسر ويسرى والداها التوأم، فى الطب والهندسة..»

وتحدثت خميسة:

ـ «جئت أعزيك يا نادية فى رجل كان كفيلًا برفع رأس أمه بأسرها.. فلنبك على هذه الأمة قبل أن نبكى عليه»

وفى جلستهم الحزينة أعاد عليهم الريس عفيفى أخبار الجنازة المهيبة التى ودع فيها الناس الشيخ فريد هنيدى إلى مثواه الأخير..

وتنساب الدموع من عينى نادية وهى تحنو على ذكرى الروح الآسرة لرجل ملك قلوب الناس قبل أن يمتلك قلبها..

«لم يعد هناك فريد..

لم يعد هناك أىّ شىء..

الدنيا خلت من حولى فجأة..

كيف سيأتى الفجر وأصليه بمفردى..؟

فليأت الفجر كعادته..

إنه ليس الفجر الذى عرفته مع رجل لخص لى أمان الدنيا وسلام العالم فى حضن دافئ احتوانى فيه بذراع وحيد وزند مبتور..»

وعادت إلى ضيوفها، تسمعهم دون أن تتحدث، تراهم دون أن تشاركهم.. ثم تتأمل ما يقولونه عن المجرمين الذين يمرحون والشرفاء الذين يدفعون الثمن.. والقتلة الذين يرتفعون فوق جثث ضحاياهم.. ومعالى الوزير أمير النحال والنائب السيد النحال الذى تنبأ منذ زمن بعيد ببطل كمال الأجسام فريد هنيدى حين قال لمن حوله: أولاد النحال سيكونون من حكام القطر المصرى.

وكيف مات يوم أن تحققت نبوءته..

وانتبهت إلى ضيفتها المهذبة تطلق عبارة من عبارات الشيخ فريد قبل أن تنصرف:

ـ «لقد صار سوق النحالين رائجًا.. فارحمنا يا الله..»

* * *

وتحول طيف الشيخ فريد إلى غول يطارد قاتليه ويقض مضاجعهم.. فما زالت عباراته طازجة ومسمياته عالقة بالأذهان.. فالنائب النحال هو الوصف لكل النواب اللصوص، والوزير النحال هو الوصف لكل الوزراء المنبطحين، أما تابعها فتيان فقد نال وصفًا منفردًا «النحالى فتيان».

ولأن النظام كان قد رسّخ عند الناس فكرة أنه نظام لا يعبأ بانتقادات المعارضين ولا بصرخات المظلومين، فقد استمرت السلطة فى تجاهل المقالات التى تندد بقتل الشيخ فريد هنيدى، واستمر المعارضون فى كيل الاتهامات لنظام يتستر على القتلة.

وعندما جاء تقرير النائب العام نافيًا أن يكون حادث قتل الشيخ فريد هنيدى، مدبرًا

بدا للناس كأنما جاءت صياغته من السيد النحال نفسه؛ إذ يقول:

ـ «إن غياب الدليل القاطع على تورط أحد المسئولين فى تدبير هذا الحادث يجعل استمرار تمتع هذا المسئول بحصانته حقًّا شرعيًا»

وهتف حلمى عبد الباقى باستياء وهو على مقربة من زوجته خميسة:

ـ «لا تأملى خيرًا فى نظام استمد وجوده من سلطة ساداتية مغتالة.. لاجديد هناك.. ولن يكون هناك جديد..»

وقالت خميسة وهى تهز رأسها أسفًا:

ـ «خروج السيد النحال من هذه القضية دون أىّ خدش يعتبر إدانة لهذا النظام المتبلد»

ـ «وماذا تريدين من نظام لا يعبأ بالحس الشعبى ولا يحترم توازع الرأى العام ولا يعمل حسابًا لغضب الجماهير»

ـ «يتعاملون معنا كأننا قوالب من الطوب.. حتى الذين يتعاملون مع هذه القوالب يحرصون عليها حتى لا تكسر، كل ما يحدث ليس فى صالح النظام..»

ابتسم حلمى فى مرارة:

ـ «وليس فى صالحى أيضًا»

ـ «كيف»

ـ «السيد النحال ذاق سهولة استخدام القتل كوسيلة لحل مشاكله.. وسوف يعشق هذه الوسيلة.. وأنا تصديت له بشراسة فى قضية الشيخ فريد وفضحته هو وفتيان.. فخذى حذرك.. وانصحى ياسر ويسرى أن يأخذا حذرهما»

وسرحت خميسة وهى تفكر فى ولديها ذوى العشرين ربيعًا.. فهل من الممكن أن يوجه السيد النحال انتقامه لأسرتها عبر اصطياد أحد ولديها بسيارة مجنونة؟

ألمت بجسدها رعدة، ثم تذكرت بداية النهاية للسيدة مارى صاحبة بنسيون السعادة التى وجدت نفسها متورطة فى قضية آداب محكمة، وتحولت بين يوم وليلة إلى ضحية من ضحايا شيطان كانت قد آمنت به اسمه السيد النحال استولى على أرض وفيلا صديقتيها حكمت وبشاير بأوراق مزورة محكمة المظهر والجوهر تمامًا كقضية الآداب التى ورطها

فيها بإمعان لأنها طعنت ـ قولًا لا فعلًا ـ فى صحة عقود البيع التى يملكها ذلك الشيطان.

وارتعد جسدها وهى ترى أن الخوف منه صار يقف جنبًا إلى جنب مع كراهيتها له، وتعجبت أنها لم تكره فيه إلا كل الأشياء التى جذبته إليها، فقد كانت قد أحبت جسارته وطموحه وذكاءه.. والآن وقد تحولت جسارته إلى إجرام.. وطموحه إلى جشع، وصار ذكاؤه لا يخدم إلا مؤامراته الدنيئة اكتشفت أنها كانت تراهن على جواد خاسر أساء إلى ماضيها لولا أنها تخطت حزام النار فيه بعفوية الريفيات دون أن تحترق..

خميسة التى تجيد محاسبة نفسها لم تجد غضاضة فى أن تبعث ندمها بصوت عال أمام حلمى عندما كادت أن تساق عمياء إلى حتفها وهى تسعى لكسب قلب حبيبها.. وكان من الممكن أن تصعد سلم الإجرام لو أكملوا القبض عليها وهى صغيرة.

ويهون حلمى عليها أمرها قائلًا:

ـ «لأننا بشر فليس المطلوب منا أن ننخرط فى صفوف الملائكة.. أنت لم تسمعى الشيخ فريد هنيدى وهو يحكى بأسلوب ساخر عن مغامراته الشبابية دون أن يخجل من ذلك.. ويتعجب أنه كان ماديًا وجسديًا وشهوانيًا كالحيوان إلى أن جاءته لحظة الإفاقة من حيوان أعجم دله على الإنسان السوى الذى يعيش بداخله، ودفعه إلى الخروج من جبه المعتم إلى نور الحقيقة.. وكم كان الشيخ فريد يردد دائمًا :

الجمل دلنى على الحقيقة.. ثم انتحر.. فلتبحثى عن جملك يا خميسة، ولأبحث عن جملى.. وليتذكر كلٌ منا أين ذراعه المبتور.. وأين واعظه الذى انتحر..»

* * *

خميسة لم تتخل عن حذرها واحتضان قلقها خوفًا على أسرتها الصغيرة، ومع هذا فلم تتقدم ذات مرة إلى زوجها برجاء أن يخفف من حدة مقالاته فى صحف المعارضة، وعرفت أنه ما من رجاء سوف يجبره على العودة إلى المياة الضحلة وهو الذى توغل مجازفًا إلى الأعماق المغرقة، فها هو يكمل مسيرة الشيخ فريد هنيدى بطريقته.. وتحول بكلمة النحال إلى أن جعلها صفة وليست اسمًا.. فصار يخاطب أباطرة الانفتاح النحالين.. وتحالى التطبيع المقيت.. فنحالو البنوك.. ونحالو الآثار المنهوبة.. ونحالو بيع شركات

القطاع العام حتى نحالو الثقافة والسينما وتجار الرقيق الأبيض فى ماسبيرو.

بل إنها باتت تحمد لزوجها حسن ما فعله من كشف بعض الأقلام التى جندتها إسرائيل لصالحها تحت ستار المصالح المشتركة بعد أن تسارع نحالو الأقلام المأجورة إلى دس سمومهم فى العسل دون أن يبدو أنهم يحقرون الهوية العروبية ويهشمون الروح الوطنية ويدعون إلى الاستقواء بأصدقاء التفوق: الأمريكان والصهاينة.

وصاح بهؤلاء الذين يروجون لثقافة الهزيمة نيابة عن إسرائيل قائلًا:

ـ «أنتم تمهدون للهزيمة الكبرى التى لن تشهدوها فى حياتكم وإنما ستشهدوها ـ حتمًا ـ الأجيال القادمة بعد موتكم، وسيظل الحديث عن أجيال ٥٦، ٦٧، ٧٣ـ كأقوى من تصدى لإسرائيل وواجه صلفها الإجرامى ـ مجرد ذكرى بعد أن تنكفئ على أرواحنا فى مستنقع الذل والمهانة»

* * *

وصحا المودعون لأموالهم فى شركة الفتيان على خبر موت ولده فتحى بشكل مفاجئ بعد أيام قليلة من مغادرته المستشفى، ومالم ينشر حول هذا الخبر هو أن هذا الشاب ذهب ضحية جرعة ثقيلة من الهيروين فجرت رأسه مع آخر نفس سحبه من شهيق الحياة. وامتصاصًا لغضب الناس أصدر النائب العام قرارًا بمنع فتيان وولده أحمد من السفر..

وكان أن صحا المودعون بعد أيام قليلة على خبر هروب ولده الثانى أحمد خارج البلاد، ومالم ينشر حول هذا الخبر ـ أيضًا ـ هو أنه فر بمساعدة مدفوعة الثمن لوزيرين سهلا له الفرار خلف ثروته.. ولم يكن من الصعب أن يتعرف الناس على أحد هذين الوزيرين المأجورين دون عناء..

وقال حلمى عبد الباقى إن الجديد فى هذا الأمر هو أن الوزراء صاروا موفورين الدناءة حتى أنهم يعملون لحساب لصوص هذا الشعب.. فما المانع أن يكون أمير النحال الوزير خادمًا عند مربى الماشية فتيان وبهائمه.

وقال إنهم أتوا جميعًا من مزرعة آثمة تربوا فيها مع الحقد والدناءة وأنهم لم يجتمعوا فى طفولتهم على مبادئ الأسوياء من الناس، وأنهم عندما تفرقوا فى سنوات التكوين عادوا

فاجتمعوا فى شكل منقار مدبب نهشوا به لحوم المصريين.

* * *

فر فتيان إلى شيطانه الكبير هلعًا ومكسورًا ورفع إليه كفه متضرعًا:

ـ «بع لى أكبر رأس يمكنه أن ينقذنى، وسوف أشتريه»

قال له بهدوء:

ـ «غضب الناس عاصفة تنعقد فى السماء، وأنت محسوب على وأخشى أن تقتلعنى عاصفتك..»

ـ «لكنها نصائحك القديمة يا سيد..»

ـ «نصائحى لاقت هواك.. فلم تلومنى؟»

ـ «أراك تتخلى عنى»

ـ «لست بأفضل من ولدك الذى هرب وتخلى عنك قبلى»

ـ «صار ثلاثتنا من ضحاياك: ميت وهارب وأنا السجن فى انتظارى»

ـ «كلكم ضحية القدر..»

ـ «أىّ قدر؟.. الذى أودى بحكمت وبشاير.. أم بالشيخ فريد.. أم بالسيدة مارى.. أم بحشمت بركات.. أم بإسكافى متجول دهسته سيارة مجهولة؟..»

نهض السيد النحال واقفًا وضغط جرس الاستدعاء متحدثًا بميكروفونه:

ـ «أين رجال الأمن ليزيحوا هذا الحيوان من أمامى»

وعرف فتيان الجبار أن الدنيا قد تخلت عنه، وأنه سقط الآن فى فراغ سحيق، وقبل أن ينصرف طوعًا متفاديًا الوقوع فى يد شلة من الثيران البشرية جاءت لاقتلاعه أرسل برجائه الأخير:

ـ «بيتك من زجاج يا ابن كلاف البهائم.. فقف معى ولا تقف ضدى»

ـ «زجاجى أقوى من حجارتكم أيها الحيوان.. فوفر أعيرتك الطائشة»

ـ «عيار اليائس الناقم .. قد لا يطيش دائمًا»

ـ «ومن ذا سيسمع صوتك وأنت فى زنزانة مساحتها متر مربع»

ـ «إذن، فأنت تعلم مصيرى»

ـ «حفاظًا على مصير أموال الأرامل والثكالى»

ـ «الأرامل التى ازددن واحدة هى نادية عز الدين.. وربما يزددن واحدة أخرى هى خميسة عفيفى»

ـ «وقد تنضم إليهن زوجتك لتتحول أسرتك كلها إلى ذكرى»

ـ «بعض الرحمة أيها الجبار»

ـ «رحمتى لا تليق إلا بمن يستحقها وأنت لست منهم»

ـ «لم نعهدك رحيمًا فى أيام صعلكتك ألقيت بجوهر البقال فى السجن»

ـ «وأنت فى أيام نذالتك ألقيت بى فى السجن»

ـ «لم يخف حقدك على من يومها..»

ـ «قد يخففه أن أراك محشورًا فى زنزانتك»

وخرج فتيان يتخبط فى ساقيه بغشاوة ألمت بعينيه وتساءل وهو يصر على أسنانه:

ـ «أين كلٌّ من ساندونى ونالوا أموالى؟ أين أصحاب المقاعد العالية.. أين الكبار الذين ناموا معى فى سرير الزنا؟»

ثم هتف به ضميره المتردى فى الضياع:

ـ «أين أنت يا شيخ فريد؟.. لماذا لم أدخرك لهذا اليوم؟.. أين أنتما يا فلذة كبدى وقد صرتما ذكرى مؤلمة : ميت هنا وهارب هناك»

وبرقت فى خاطره صورة رجل انسدلت أمام خياله العائم.. رجل ثورى قديم ومناضل أشيب لا يكف عن النزال اسمه حلمى عبد الباقى..

«أنه الضحية القادمة..

فليأخذ حذره..

وليقبض بشده على سيفه الوحيد الباقى..

السيف المشرع فى وجه الخيانة والجبروت..

فماذا لو احتميت به؟»